الفصل الرابع عشر

بين الحب .. والترحال

لا أدرى إذا ما كان الوزير (د. حسين كاظم) قد عرف أن محاولة تجنيدى فى جهاز «الأمن القومى» قد فشلت أم لا.

ولكنه على أية حال ظل يتعامل معى بصورة ممتازة فيما بعد ذلك، وكان عملى فى الإدارة العامة للترجمة ـ المحشوة حشوًا بالنساء العاملات ـ يسير بصورة جيدة، وكان حذرهم منى فى البداية ـ وفى مقدمتهم المدير العام السيدة نبيلة مشهور ـ واضحًا وجليًّا، على خلفية مشهد «الشخص المشاغب» أو على الأقل «بتاع المشاكل».

لم يمضِ سوى أسبوعين على وجودى فى تلك الإدارة، إلا واقترحت عليهم إصدار نشرة «اتجاهات دولية»، نتولى فيها ترجمة أهم الاتجاهات الدولية فى مجالى الاقتصاد والإدارة العامة الواردة فى المقالات المتضمنة فى أهم الدوريات الإنجليزية والفرنسية التى يشترك فيها الجهاز، بهدف تثقيف القيادات الإدارية داخل الجهاز وخارجه، وإطلاعهم على أهم المتغيرات والاتجاهات العالمية فى هذين المجالين.

لقد ظل عمل الإدارة العامة للترجمة منذ إنشائها قبل ربع قرن ينحصر فى مجرد ترجمة الموضوعات التى ترد إليها من رئيس الجهاز، أو من بعض الإدارات التى تحتاج إلى بعض الترجمات، وبصفة خاصة الإدارة المركزية للبحوث، وشيئًا فشيئًا تحولت الإدارة العامة للترجمة إلى مجرد أداة متواضعة الفاعلية والإنتاجية. كما أدى اعتماد الباحثين فى مجموعات البحوث على ترجمات الإدارة العامة للترجمة، إلى ضعف مستواهم كباحثين فى متابعة الأدبيات الأجنبية فى مجال الإدارة أو غيرها من المجالات.

طلبت منى مديرة الإدارة، إعداد مذكرة تتضمن هذا الاقتراح لعرضه على رئيس الجهاز، تتضمن شرحًا وافيًا للفكرة، ودرجة جدواها وأهميتها، وكذا الموضوعات التى ستحظى باهتمام تلك المجلة ونطاق توزيعها.

وكانت «نبيلة مشهور» تتميز ببعض الخصال الجيدة، وأبرزها قدرتها على التفاعل مع الأفكار الجديدة، ومن ثم كان لتحمسها للفكرة دور أساسى فى الدفع بها إلى الأمام.

كتبت المذكرة، وحصلنا على موافقة رئيس الجهاز، وفى يناير من عام ١٩٩٢ كنا قد أصدرنا العدد الأول متضمنًا موضوعات تكشف عن اتجاهات حركة العمالة فى اليابان فى العقد القادم، وعن زيادة إنتاج الإنسان الآلى فى ذلك البلد، وعن إعادة نظر الحكومة اليابانية فى برامج المساعدات الخارجية والدولية الذى تقدمه، وغيرها من الموضوعات التى غلب عليها رصد اتجاهات جديدة داخل النظام الإدارى والاقتصادى اليابانى، وصاحب كل موضوع من تلك الموضوعات ـ التى لا تتجاوز صفحتين ـ رأى الإدارة العامة للترجمة فى كيفية الاستفادة من بعض تلك الاتجاهات فى مجال السياسة العامة المصرية، وكنت أنا بالطبع من يكتب هذا الرأى.

لقد صدر العدد الأول فيما لا يزيد عن اثنتى عشرة صفحة من القطع الصغير، وبدون تلوين لصفحاتها، ولكنه وجد صدى ممتازًا لدى رئيس الجهاز، ولدى كثير من القيادات الإدارية داخل الجهاز. ثم توالى إصدار الأعداد اللاحقة كل ثلاثة أشهر، ومع كل عدد جديد كانت صفحاته تزيد (حتى قاربت الستين صفحة)، وتنوعت موضوعاتها لتشمل ترجمات إنجليزية وفرنسية، وتلونت صفحاتها، بحيث بدت المجلة تعبيرًا عن «فكر جديد» خلاق داخل الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة، مما حدا برئيس الجهاز إلى منح إدارة الترجمة عدة مكافآت مالية على هذا العمل، الذى استمر فى الانتظام حتى العدد الثامن فى عام ١٩٩٨ حينما غادرت هذه الإدارة فتوقفت بعدها.

ولأن القلب ما زال مجروحًا بمشاعرى تجاه «أميمة»، ولم تفلح زيجة متسرعة من دفعى إلى النسيان، ومداواة مشاعرى الكسيرة، فقد ظل القلب هائمًا باحثًا عن حب فى مكان ما، ليداوى الجرح، ويحفظ الكبرياء، ووقع ما لم أكن أظنه أو أرغبه، أو قادرًا

على رفضه. ووسط أكثر من عشر زميلات، وجدت نفسى منجذبًا لإحداهن، كانت جميلة بقدر ما هى أنيقة، وكانت ودودة وعطوفة بقدر ما هى بسيطة وصادقة.

لم تكن تنم الأخريات، مثلما كان يفعل جميع العاملين والعاملات فى تلك الإدارة، لكنها متزوجة .. ثم إنها كانت على غير عقيدتى الدينية، وكانت أمًّا لطفلين، مثلما أنا أبًا لطفلين. ويبدو أن داخلى كان يتصورها نزوة، أو مجرد تجربة فى المشاعر تأخذ وقتها ثم تنزوى فى ركام الذكريات وفى فضاء النسيان، هكذا تصورت، وتركت نفسى واهمًا أو متوهمًا أننى قادر على الخروج والهروب وقتما أرغب وأشاء.

كانت هى قارئتى الأولى، طوال فترة كتابتى فى جريدة «الوفد»، حتى إنها كانت تقرأ المقال فى منزلها قبل أن تأتى إلى العمل، وكانت هى قارئة أسرارى حينما دفعت إليها بمذكراتى فى «سجن أبو زعبل ١٩٨٩» قبل أن يقرأها أى إنسان، فجاءت إلىَّ ودموعها تكاد تنهمر من عينيها الجميلتين، فأدركت وقتها أن ما كتبته يستحق النشر على الناس، وهو ما تحقق حينما نشرت هذا الكتاب بعنوان «أبو زعبل ١٩٨٩» بعد أحد عشر عامًا من وقائعه.

وكانت هى ملاذى من شقاء حياة زوجية فاشلة، منهكة للأعصاب وفاترة للهمة، وبقدرها كنت أنا ملاذها من شجنها العميق منذ وفاة شقيقها الوحيد، وهو من كان ملاذًا لها ولشقيقتيها.

وكنت ملاذها من تآمر ونميمة زميلاتها ـ بل وحتى مديرة الإدارة ـ لا لسبب إلا كونها جميلة ومسيحية.

وكنت ملاذها كذلك وكاتم أسرارها من زوج يكاد لا يفيق من أثر الخمور ومن سوء التصرف وغياب النخوة والحرص عليها، مما جعلها مطمعًا لأصدقائه، أو من تصورهم أصدقاءه فأدخلهم فى صلب مشاكلهما الزوجية والأسرية.

كنت نقيض زوجها .. وكانت نقيض زوجتى.

ومنذ الحادى عشر من شهر إبريل عام ١٩٩٢، نجحت (ل) من إخراج وانتزاع كل ظل لذكرى «أميمة» من جسدى ومن روحى ومن مشاعرى، وطاردتها حتى توارت شبحًا باهتًا فى فضاء نسيانى.

صحيح أنه بقدر متعتى بتلك العلاقة العاطفية الرومانسية الرقيقة، بقدر عذابى وقلقى، فقد كانت (ل) بطيبتها وبساطتها ورقة تعاملها مع زملائها مناط أطماع، وكانت أناقتها الزائدة وملابسها التى قد لا تكون مناسبة لوسط وظيفى شعبى وتقليدى تجعلها محلًّا للأقاويل، وكل هذا كان يستلزم جهدًا شاقًّا من أجل تغيير قناعتها وزيها وملابسها؛ فكانت معركة من أصعب المعارك التى خضتها حتى إننى وجدت نفسى فى بعض الأوقات أكاد أوشك على الهلاك كمدًا وحزنًا وارتيابًا، حتى نجحت أخيرًا بعد عدة سنوات أضنانى فيها الجهد والعراك أحيانًا، وفى بعض الأوقات كنت أجد نفسى ملتاعًا بين قلمى والسطور، أبث فيها لوعتى وحيرتى وحزنى، مثلما فعلت فجر التاسع من أكتوبر عام ١٩٩٢ تحت عنوان «لحظة فراق»:

> لحظة فراق أخرى، وكأننى على موعد مع أحزان لا تنتهى، وآلام لا تفرغ، ومشوار للحزن طويل بطول العمر طال أو قصر.
>
> أحببتها .. وكأننى لم أعرف الحب يومًا فى حياتى، وعشقتها وكأننى أرتشف من نبعها ترياق الحياة ليمتد بى الدهر ما طال بى وبها.
>
> تمنيت فيها ما حرمتنى منه ظروفى وأقدارى، وشبعت فيها من جوع الزمان وقسوة التجربة. حلمت بها مرفأ أمان لملاح سفينة تعبت براكبها، وتعب بها، وتمنيت فيها حنان أم مفتقد، ووفاء صديق لم يصادفنى، وإخلاص حبيب لم يتحقق يومًا فى حياتى.

تمنيت فيها كل المعانى والرموز الجميلة .. والنبيلة، الأم .. الحبيبة .. الصديقة .. الأخت، وقبل كل ذلك وبعده العاشقة، حيث تاه العشق فى زحام الناس ولهفة المادة.

لم أصادف مثلها .. هكذا تمنيت، أو تخيلت، أو أسقطت من عشق اللحظة وفورة الملامسة، على واقع لم يكن كذلك.

مراوغة هى كزبد البحر، كذوبة حينما يصبح الصدق هو طوق النجاة لمشاعر من كان مثلى.

يا ليتنى ما عرفتها؟

بل ليتنى عرفتها.

يضنينى الشك، ويعذبنى حب جاءنى على غير موعد، أو فلنقل كنت أتنسمه وأنتظره، منذ نعومة أظافرى وحتى اليوم، إنه حب العمر، كل العمر، حب الماضى فى الطفولة البعيدة، حب الأمس القريب فى الشباب الذابل، وحب الحاضر الذى عذبنى بزواج لم يكن لى، ولم أكن له، وحب مستقبل أطمح إليه وأتمنى أن أعيشه.

إنه حب يبدأ من حورية، صعودًا فى المشاعر والأحاسيس ليتجاوز ويجتاز «أميمة»، ليستقر هنا مجسدًا لكل اللواتى لم يكن عند (ل).

يا ليته لم يكن، لأستمرئ فراغ القلب، تتقاذفه امرأة هنا، وامرأة هناك، تشبعه غريزة للحظة، رعشة الملامسة، ودفء الشفاه على الشفاه، ثم ينفض السامر، فلا يترك هناك جرحًا ولا غرزًا فى الجسد أو ندبة فى الوجه تعيش مع الزمن، وتستقر فى موطن الألم.

ويلى من رومانسيتى التائهة.. الجارفة .. وويلى من نفسى على نفسى.

أحيانًا، حينما أتوقف برهة لأستعيد شريط الذكريات، ولوحة التجربة، يخيل إلىَّ أننى أعانى من بعض المظاهر «المازوكية». نعم عشق تعذيب الذات، فاختياراتى كلها حادة، غريبة، وغير مألوفة.

حتى اختياراتى فى الحب تبدو غير مألوفة، صعبة، بينى وبينها مشاقًّا وصعوبات، وها هى (ل) نهاية اختيارات المشاعر المتوهجة، والمندفعة، زوجة .. وأم .. وقبطية. ثم ها هى بقدر ما فيها من رقة وحنان، بقدر ما فيها من كذب يثير المخاوف، ويزيد الشكوك، ويطلق عنان القلق حتى الجنون.

وبعد كل اندفاع المشاعر، وبعد كل توطن الصورة فى القلب، أجد نفسى فى مفترق طرق، أو لحظة فراق.

ينخلع القلب، وكأن ابنًا لى قد أصابه مكروه كلما دق وتر الرحيل، وتنساب دمعة قهرًا ـ على غير رغبة منى ـ حينما أتصور افتراق الطريق؛ شعور بالضياع، وإحساس بالعدم، وكأن الميلاد قد صار موتًا، والموت قد صار أنشودة البداية والنهاية فى آن معًا.

ليتنى ما عرفتها،

بل ليتنى عرفتها!.

فجر الجمعة

٩ أكتوبر ١٩٩٢

وزاد الأمر سوءًا فى حياتى، أن «زوجتى» كانت تتسم بصفات غريبة، جعلت الحياة بيننا شبه مستحيلة؛ فبالإضافة إلى كونها «نكدية» وكذوبة، فقد كانت تتولى أثناء غيابى

البحث والتفتيش فى أوراقى، ومذكراتى، وأجندة اتصالاتى الهاتفية، وكانت تسجل وتراقب، ولم تكتفِ بهذا، بل إنها ذهبت إلى ما هو أبعد وأخطر، فلم يكفها التجسس علىَّ، بل إنها ـ وبمساندة من أمها ـ أخذت فى الاتصال بابنة (ل) التى لم تتجاوز العاشرة من عمرها وزوجها لتطلب منهما «لمّ أمها أو زوجته .. اللى سايبة على حل شعرها»، هكذا باتصال مجهول المصدر.

ولم تكتفِ بذلك، بل إنها داومت على الاتصال برئيستى فى العمل لتروى لها قصص الحب المتبادل بين زوجها (أنا) وبين زميلته (ل)، راجية منها التدخل وسط بكاء مصطنع لزوجة مكلومة فى زوجها الغدار!

ثم بدأتْ فيما هو أبعد فكتبت رسالة إلى رئيس الجهاز (د. حسين رمزى كاظم) تروى له أن زوجها (أنا) على علاقة عاطفية بزميلته، راجية منه التدخل.

وهكذا خلقت من حولى جوًّا رهيبًا، وأساءت إلى سمعتى بقدر ما أساءت إلى سمعة امرأة، أقل ما توصف به أنها ودودة ومحترمة.

ولم تكن تكتفِ بهذا، بل إنه بمواجهتها بتلك التصرفات، كانت تمسك «بالمصحف الشريف» وتقسم أغلظ الأيمان بأنها لم تفعل، ولم تتصل بأحد، مما جعلنى أعيش الحيرة القاتلة لشهور طويلة، حتى تبين بالوقائع أنها كانت وأمها وراء كل ما جرى خلف ظهرى من إساءة لسمعتى وشرف امرأة محترمة.

وعندها .. لم أكن لأستطيع الاستمرار فى حياتى مع زوجة من هذا النوع، خاصة بعد أن تيقنت من أنها وجميع أفراد عائلتها تتبنى ما يشبه مبدأ «التقية» حينما يقسمون أغلظ الأيمان على شىء، ويكون ضميرهم فى شىء آخر تمامًا، كما صرح لى والدها فى إحدى المرات بعد إيقاع الطلاق.

لم أستطع تحمل حياة مزدوجة، بين زوجة لم أعد أطيقها، وامرأة أحبها وأعشقها، فقررت وحزمت أمرى على الطلاق مهما كلفنى من مشاق وأضرار مالية ونفسية، واعتبرت أن هذا الانفصال، أفضل لأطفالى من أن ينشأوا بين والدين لا يطيق أحدهما الآخر، خاصة بعد أن تحول السلوك المخادع للزوجة إلى سلوك استفزازى دفعنى دفعًا فى إحدى المرات إلى التعدى عليها جسديًّا، وكدت أن أصيبها فى إحدى عينيها. فلم يكن بد من الانفصال، وبعد مرواغة منها ومن أهلها، وجدوا أن تصميمى على الطلاق ليس منه خلاص، فوقع الطلاق فى يوم عيد الميلاد الرابع لنجلى «حسام» فى التاسع من يونيو عام ١٩٩٣، وطويت بهذا صفحة من أسوأ صفحات حياتى، كنت أراها رؤية العين فى لحظة عقد قرانى منذ خمس سنوات.

وفى ليلتى تلك، انفردت بنفسى، لأكتب لأطفالى ما تصورته رسالة اعتذار لهما وشرحًا لبعض أسبابى فى الطلاق:

إليكما.. وحدكما

معذرة لكما.. فلم أحسن الاختيار

معذرة حسام ..

فهذا اليوم هو عيد مولدك الرابع، فمعذرة لن أكون هناك بين المحتفين بك .. والملتفين حولك.. والعاطفين عليك.

معذرة حبيبى..

وأنا أكثر الناس حبًّا إليك، ولهفة عليك، وشوقًا إلى ضمك إلى صدرى، وأن ألفك بين ذراعى، فأحتضن بك ما حرمت منه حياتى، وتمنيت فى صغرى وشبابى.

صفحًا حبيبى ..

فقد أخطأت فى حقك وأخيك مرتين، مرة عندما أسأت اختيار الأم، ومرة ثانية حينما لم يتحمل صبرى ومساحة مشاعرى أن أستمر معها مشوار العذاب.

كم أتوق إليك، فكيف أنت الآن، من يصحو ليلًا ليحفظ دفئك فى فراشك، ويقبل وجنتيك الوادعتين وشفتيك الباسمتين؟

مَن مِن هؤلاء الصغار يمكن أن يظللك بظله؟ فتفخر بمظلته، وتتباهى بقدرته وحصانته؟

حبيبى طارق ..

كيف أنت الآن بنظرة عينيك الجذابتين القاتلتين؟

آه من بنات عمرك .. من عينيك هاتين، آه من أقرانك لخفة ظلك وقوة حضورك، كم أنا مشتاق إليك، أشتاق لحملك على ظهرى (جمل يا بابا) .. أتلهف لحملك على كتفى (حصان يا بابا) .. أتوق إلى قبلتك الساحرة.

اليوم عيد ميلاد حسام يا طارق .. ستقولها وترددها، «هابى بيرز داى تو يو» حسام، اسمعك بصوتك العذب وكأنها سيمفونية «لشوبان» أو«بتهوفن»، صوتك رقيق كجندول ماء، ومخارج ألفاظك واضحة حانية، يا ليتنى كنت هناك أسمعك، وأقبلك وأخيك، وأضمكما إلى صدرى، فأستنشق من عبيركما عطر الزهور وسط حياة أشبه بوحشة الصحراء وجفاف اليابسة.

فجر الخميس ١٠ يونيو ١٩٩٣

وفى مارس من العام التالى (١٩٩٤) تلقيت دعوة من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الفاتح فى ليبيا، لحضور ندوة دولية حول «رؤية مستقبلية للوطن العربى»، تعقد فى الأيام الثلاثة (١٦-١٨ إبريل)، وكانت فرصة بالنسبة لى لرؤية بلد عربى أثار الزوابع والمشكلات فى الساحتين العربية والدولية، بأكثر مما أضافه، وبأكثر من قدرته وطاقته، ففُرِضَ عليه حصار دولى ـ انساقت إليه الأنظمة العربية جميعها ـ وبدأ العد التنازلى لاستسلامه وتسليمه.

كما وجدتها فرصة للابتعاد عن مشاعر حب شكلت طوفانًا فى حياتى، فغيرت كل الحسابات حتى إننى تنازلت طواعية عن فرصة عمل مميزة فى صحيفة (عكاظ) السعودية، وبأجر يكاد يتمناه مئات الآلاف من المصريين الراغبين فى السفر والعمل هناك.

واصطحبت معى أربعة كتب هى كل مؤلفاتى حتى ذلك الحين، ترتبط بأوضاع المنطقة العربية مثل كتاب «مصر وعصر المعلومات» وكتاب «اختراق الأمن الوطنى المصرى .. رؤية سيسيولوجية» والثالث «أوهام السلام .. رؤية استراتيجية»، أما الرابع فكان بعنوان «التطرف الدينى ومستقبل التغيير فى مصر».

وكان من الضرورى الحصول على موافقة رئيس الجهاز (د. حسين كاظم) للحصول على تلك البطاقة الصفراء اللعينة، فوافق الرجل، (وثيقة رقم ٢٥) ولا أدرى حتى الآن، إذا كان الرجل قد تصور أنها جزء من مهامى المتصورة فى جهاز الأمن القومى، الذى سبق ورشحنى إليه، كما سبق وأشرت، أو أنه كان يعلم أن عملية تجنيدى قد باءت بفشل ذريع.

وفى «مالطا» محطة الوصول الأولى إلى ليبيا والعودة منها، وجدتنى مشدودًا إلى القاهرة، حيث تسكن مشاعرى، ويلامس القلب الهدوء والحنان، فامتطيت القلب والقلم لأكتب حتى مالطا ثم نشرتها فى صحيفة (الأحرار) المصرية المعارضة التى كان يتولى رئاسة تحريرها فى ذلك الحين مصطفى بكرى:

حتى مالطا

عودتنى تجربة الترحال والسفر أن عيون المحبين قلقة، وأن مشاعرهم دائمًا ساخنة و عفية، وأن أفكارهم وخواطرهم تتوهج بين طول المسافات ولحظة التلاقى.

وعلمتنى تكرارات السفر وزيارات الموانى والمطارات، أن شوق المحبين واشتياق العاشقين أعمق برغم بعد المسافات وأقرب من جوار العابرين والمراقبين.

فمنذ تلقيت دعوة رسمية من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بالجماهيرية الليبية، للمشاركة فى ندوة نظمتها الكلية بالتعاون مع الجمعية العربية للعلوم السياسية فى إبريل عام ١٩٩٤ حول «الوطن العربى .. رؤية مستقبلية»، والخواطر تتزاحم فى فكرى، والصور والخيالات تترى فى مخيلتى حول هذا البلد الصغير المحاصر بلا جريمة، والمشتبك أحيانًا فى معارك بلا هدف، والطامح إلىَّ دور يتجاوز حدود المكان وثقل المكانة. وبرغم ظروف الحصار ومشقة السفر؛ حيث من المقدر أن تقلنا إحدى الطائرات إلى روما، ومنها تقلنا طائرة أخرى إلى مالطا، ثم ننتظر يومًا أو بعض يوم تحملنا بعدها سفينة من هناك إلى طرابلس. فقد كان شوقى للاقتراب من التجربة الليبية بكل ما أثير حولها من صخب، وكل ما كتب بشأنها يدفعنى دفعًا إلى القبول بالمخاطرة والذهاب إلى هناك.

والمخاطرة هنا تحمل معنيين، فالدعوة جاءت متأخرة، وتذاكر الطائرة وصلت قبل موعد افتتاح الندوة بيومين ـ كما هى عادة الليبيين ـ فالوقت إذن فى غير متسع، وخوفى من مغادرة قاهرتى يكمن فى رهبتى من قسوة المقارنة بين ما أراه هنا وهناك وبين ما نعيشه على أرضنا، وقد كان.

فى مطار القاهرة كانت الإجراءات سهلة وسريعة، وفى موعدها تمامًا بدأت محركات الطائرة الإيطالية (أليتاليا) تدور، وبدأت رحلة جديدة من رحلات العمر المثقل بالأحزان والهموم.

بمجرد أن تحلق بك الطائرة فى السماء، وتدور فى محيط مطار القاهرة، يقفز إلى ذهنك سؤال حائر وتطوف بعينيك مقارنة مفروضة بين قبح وجمال، وكل من تجول بين مطارات العالم يتحسر على افتقاد القائمين على مطارنا للذوق والحس الجمالى السليم؛ فاللون الأصفر، يطغى على كل بقعة فيه، فيضفى على المكان رهبة الموت والقتامة والحزن؛ فيصاب الزائر بالكآبة ويشعره بالانقباض، فى بلد يجرى بين أراضيها ووديانها أطول أنهار العالم وأعمقها.

فى جميع مطارات العالم، ترتاح العين بالنظر من نافذة الطائرة وتأمل لون الخضرة وبهجة الحياة، فى مانيلا وطوكيو وروما وبانكوك، بل أيضًا فى مالطا.

والخضرة هنا لا تعكس جهد الإنسان فحسب بقدر ما تعطى انطباعًا عن التفاؤل والرغبة فى الحياة ومقاومة رهبة السكون القاتل والقاتم.

إننا إزاء نمطين من الحياة قبل أن نكون بصدد مجالين للتذوق والتجمل: نمط يعشق الحياة ويتفاعل معها أخذًا وعطاءً، ونمط آخر يتعايش مع الجغرافيا دون إضافة أو تجديد.

المصريون القدماء كانوا أكثر من أحفادهم ذكاءً، فقد طبعوا الطبيعة بطابعهم وشكلوا الجغرافيا بعلمهم وذوقهم، فجاءت الأهرامات والمعابد تؤكد مهارتهم، وتترك للزمن والتاريخ برهانًا على كفاءتهم والحكم على إبداعاتهم.

ماذا جرى لنا؟

هل تكلفكم كثيرًا زراعة الخضرة ورسم البسمة على وجوه زائرى مطار القاهرة؟ سؤال مطروح بإلحاح على المسئولين عن مطار العاصمة المصرية العريقة.

ثلاث ساعات بين أفق السماء الممتد،وأمواج البحر المتوسط وتقترب الطائرة من الحافة الجنوبية الشرقية لجزيرة «صقلية» بجبالها وسهولها الخضراء المنبسطة، ترتاح العين لرؤية اللون ويستقر الوجدان لمشاهدة الأكواخ والقصور بين أحضان الطبيعة الخلابة، وتتأكد العين أن ما تراه من علٍ هو انعكاس لمدى تنظيم الإنسان المتحضر لحياته وتعامله المبدع مع عطاء الجغرافيا، ضيقًا كانت أو وفرةً.

بعد قليل تهبط بنا الطائرة فى مطار روما.. الإجراءات بسيطة وسهلة، ساعات فى الانتظار وتقلنا طائرة أخرى إلى مالطا، والرحلة بين روما ومالطا تستغرق حوالى ساعة.

تبدو مالطا للناظرين إليها بين السماء كما لو كانت قلعة حصينة، بنيت على جرف قارى صخرى برز من قاع البحر الأبيض، ليتوسط طرق القوافل وطموحات الغزاة والفاتحين، وتتكون مالطا من ثلاث جزر، أكبرها جزيرة مالطا أما الأخريان فهما جزيرتى «جوزو» و «كومينو».

ومساحة مالطا لا تزيد على تسعة عشر ميلًا طولًا، وأحد عشر ميلًا عرضًا، أى ما يساوى حى شبرا فى قلب القاهرة تقريبًا، والسيارة تكاد تقطعها فيما لا يزيد على ساعة زمن.

تقلب على الجزيرة الغزاة والفاتحون منهم الفرنسيس والإنجليز والإيطاليون وجنود الحملة الصليبية، كما اتخذها العرب مركزًا من مراكز تجارتهم ونقطة وثوب الى أوروبا وترك كل من هؤلاء بصمة على أرضها وحرفًا من حروفهم على ألسنة أهلها.

فلغة أهل البلاد «المالتيسية» تتكون فى معظمها من مفردات عربية وإيطالية، ويدهشك عند التجوال فى شوارع الجزيرة الصغيرة وعاصمتها «فاليتا» التى بناها القائد الدينى «لافاليت» منذ القرن السادس عشر، ذلك التشابه الكبير بينها وبين ثغرنا المقدونى الجميل «الإسكندرية» فالشوارع الطويلة المرتفعة المتجهة فى انحدار

محسوب ناحية البحر، وطرزها المعمارية الإيطالية الطابع والمتوسطية الروح، والشوارع هناك وعلى عكس الإسكندرية، نظيفة تكاد تخلو من كل ما يعكر صفو البال ويبدد الإحساس بالجمال وروعة الوجود الإنسانى.

هنا ترتاح الأعصاب قليلًا من هوس الضوضاء فى مدننا العربية والمصرية، فلا يكاد يسمع صوت نفير سيارة، وتبدو على الجزيرة ملامح عز وانتعاش اقتصادى، زاد منه ظروف الحصار المضروب على ليبيا؛ حيث تحولت مالطا إلى محطة انتظار للذاهبين إلى الجماهيرية أو العائدين منها.

ويتميز الشعب المالطى بخفة ظل ومرح حاضر دومًا، كما يحرص الجميع على نظافة مدينتهم. وأثناء تجوالى فى شوارع المدينة شاهدت أحد أصحاب المحلات يقوم بإصلاحات فى محله، ويقوم بالحفر لمد شبكة صرف صحى به، وأمام المحل استأجر الرجل سيارة نصف نقل طوال النهار ليلقى فيها العمال الأتربة ومخلفات الحفر، حتى لا يلوث رصيفًا أو يسبب ارتباكًا فى الطريق العام، فما بالنا ونحن نلقى بالأتربة ومخلفات بناء العمارات والأبراج الشاهقة فى الشوارع وعلى الأرصفة لأسابيع وشهور حتى تزيلها رياح عاتية!.

وعندما تتحدث ـ وأنت العربى ـ عن مالطا فلا يفوتك الحديث عن «عبد العزيز جربوع»، ذلك المواطن الفلسطينى الأصل، المصرى الروح، صاحب أحد المطاعم الشرقية القليلة فى الجزيرة، فهو محطة لكل الزائرين العرب، يقابلك بابتسامة، ويرحب بك فى كرم عربى لا ينسى، وتسمع لديه أجمل ما شذت به سيدة الغناء العربى «أم كلثوم».

ثلاثة عشر عامًا وعبد العزيز يقيم فى مالطا، سمع ورأى وتعلم الكثير، وظل الحنين إلى شبرا التى أقام فيها سنوات الصبا والشباب، وإلى غزة حلم الوطن الضائع والمسلوب.

داعب اتفاق غزة ـ أريحا أحلامه، وأنعش لبعض الوقت آماله فى العودة إلى فلسطين، طالب القنصلية المصرية فى مالطا بتجديد وثيقة سفره المصرية المفقودة، وأرسل القنصل المصرى هناك طلب عبد العزيز إلى مصلحة الوثائق والجوازات فى القاهرة، فرفض طلبه. فهل أناشد السيد اللواء وزير الداخلية بالنظر فى هذا الطلب وشمول صاحبه بالرعاية والعطف؟.

وجاء موعدنا مع «غرناطة طرابلس»، وهى السفينة الليبية التى ستبحر بنا إلى طرابلس، يفاجئك جو الانتقال من هدوء الأعصاب إلى التعامل مع مئات الديكتاتوريين الصغار، فعلى ظهر السفينة الفخمة، تجد الوجوه قد كظمت غيظًا لا نعرفه، واكتست الملامح بقسوة لا نفهمها، وتعالت الأصوات بأوامر وتحذيرات لا نطيقها. فى لحظة تنتقل من عالم إلى عالم، ومن مناخ إلى مناخ، ومن معاملة إلى معاملة، وبرغم أننا ضيوف على إحدى المؤسسات الأكاديمية فى الجماهيرية، فإن هذا لا يهم، فإنت هنا والآن تحت حكم الجماهير، والجماهير أفراد تتفاوت بينهم الخبرات والثقافات، وتصطدم مع أشخاص انطبع لديهم مفهوم مغلوط بأن حكم اللجان الشعبية وتفكك جهاز الدولة، يعنى أن كلًّا منهم قد أصبح دولة فى ذاته، يمارس كل صنوف القهر على الآخرين. إنه فى داخله إنسان مقهور.. ولهذا حديث آخر، وكل عام وأنتم بخير.

□ □ □

وفى ليبيا وجدت نفسى فى خضم معركة مزدوجة لم أردها، ولم أسعَ إليها، كانت الأولى ضد زميلين مصريين، جاءا مع المدعوين، أحدهما أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، والثانى أستاذ فى أحد المراكز التربوية. وكان أولهما زميل دراسة وزميل دفعة، وكان الثانى قد تردد علىَّ أكثر من مرة أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه للحصول

على إصدارات النشرة الإحصائية التى كنت أشرف عليها فى الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة طوال عامى ١٩٨٦ و١٩٨٧، وهنا وجدت شخصين مختلفين تمامًا.

أحدهما جاء للاسترزاق ـ بكل ما تحمله الكلمة من معنى ـ حتى إنه لم يتردد بفجاجته فى مطالبة الليبيين أثناء الاجتماع بهم وعلى رأسهم الرجل الثالث فى القيادة الليبية فى ذلك الحين، وأمين الاتحاد الاشتراكى الليبى (إبراهيم الحمودى) بدعم اللجان الشعبية التى أقامها فى القاهرة، وكان هذا أكبر كذبة سياسية وعملية احتيال مكشوفة. بل يكاد يبتزهم ابتزازًا، عازفًا على الأوتار التى تعجبهم من قبيل:

- احنا عاملين لجان شعبية فى مصر، وأنتم لا تدعمونها.

هكذا دون خجل ولا وجل، وكان من الممكن أن تأخذ عليه مثل هذه الأقوال والتصرفات لدى الأمن المصرى عند عودته، لولا أنه قد عرف عن هذا الشخص أنه معتوه أو «خفيف» وبكلمة «غير موزون».

أما الثانى فبرغم صمته، وعدم تعبيره بوضوح عن مطالبه ومواقفه، لكنه وجد ضالته فى (أ. ث) فوقف خلفه يدعمه فى تصرفاته الشاذة دون أن ينطق بكلمة.

لقد كاد الأمر يصل بينى وبين (أ. ث) إلى حد التشابك بالأيدى فى أحد المطاعم فى «مالطا»، فأمسكت بنفسى حتى تمر هذه الرحلة الكبيسة، وكل ما قمت به بعد عودتى إلى القاهرة، هو الإمساك «بأجندة» الهاتف، ومزقت منها اسم وعناوين وأرقام تليفونات هذا الشخص حتى يومنا، ولم أقابله، ولم أتصل به أبدًا، برغم إلحاحه المتكرر ومطالبته مشاركتى فى أنشطة مركزه «البحثى الممول من الخارج» باعتباره دكانًا من دكاكين التمويل الأجنبى، على الرغم من صياحه العالى الصوت فى صحف المعارضة المصرية حول العدو الأمريكى وغيرها من الشعارات التى لا يطابق بينها وبين سلوكه.

فلم يكن يومًا اسمى قابلًا بأن يغسل فيه الآخرين أموالهم المشبوهة.

أما المعركة الثانية، فقد كانت فى مواجهة الرجل الثالث فى ليبيا مباشرة، وأمين التنظيم السياسى، وكلفنى الأمر وضع اسمى فى القوائم السوداء وعدم توجيه الدعوة لزيارة هذا البلد مرة أخرى. فأثناء اجتماع الرجل بممثلى الوفود جميعًا (مصر ـ العراق ـ تونس ـ السودان وغيرهم)، أخذ الرجل فى الحديث حول أهمية النضال الديمقراطى فى بلادنا العربية.

واستمر فى هذا الحديث حوالى ثلاثين دقيقة، والآخرون من الوفود يؤكدون كلامه، والزميل المصرى (أ. ث) يطالبهم بدعم اللجان الشعبية التى أقامها فى مصر كذبًا.

واستفزنى الموقف كله، هل أنت من يتحدث عن الديمقراطية والحريات العامة، وكل تصرفاتكم وشعاراتكم المقتبسة من ذلك الكتاب الفوضى الهجين «الكتاب الأخضر»، والمكتوبة فى كل زوايا وممرات السفينة التى أبحرت بنا، وكذلك فى الطرقات والشوارع، وفى الفنادق الليبية كلها تقول «من تحزب خان» وتهاجم المفاهيم المستقرة للحرية والديمقراطية التى عرفها المجتمع الإنسانى الحديث. فلم أملك من نفسى سوى مطالبتى بالحديث، ثم أخذت ألقنه درسًا قاسيًا:

- كلنا نتحدث عن النضال من أجل الديمقراطية والحريات العامة فى بلداننا العربية، وهذا كلام طيب، وقد أشار السيد «المحمدى» إلى النضال الديمقراطى فى مصر، وأنا من مصر، وقد اعتقلت فى عهد الرئيس السادات عام ١٩٧٧، وفى عهد الرئيس مبارك عام ١٩٨٥ و١٩٨٩، أى أننى لست على رأسى «بطحة». واستطردت:

- لكننى أؤكد لكم أننى معارض للرئيس الحالى، وأهاجم سياساته فى مصر وخارج مصر، أما فى بقية البلدان العربية فنحن نرى تقديس الحاكم، فنجد «الأخ القائد المفكر» وكنت ألمح للعقيد القذافى ـ والقائد المهيب الركن ـ وكنت ألمح إلى صدام حسين ـ وهكذا إذن عليكم أولًا أن تتحدثوا عن الحريات العامة والديمقراطية فى بلادكم.

وسكت.

وصمت الجميع .. لم يرد أحد .. ولم ينطق أحد.

وأظن بعدها أننى قد وضعت على القوائم السوداء، فلم توجه إلىَّ دعوة بعدها أبدًا لزيارة ليبيا، منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا.

□ □ □